العادية، وعليها تلك الصينية الصفراء التي لم تكن توضع حتى يسرع إليها الصبيان والشبان يتكلفون قراءة ما كان عليها من بعض النقوش قبل أن يُرص الخبز عليها رصًّا فيخفي هذه النقوش إخفاء.

نعم! ولم يكن يأكل بيديه كما يأكل أهل الدار، وإنما كان يصطنع هذه الأدوات التي يصطنعها المترفون. وكان سيد البيت وسيدته يتحدثان بذلك منكرين له بأطراف ألسنتهما معجبين به أشد الإعجاب في قلوبهما، وكان الشبان من أبنائهما يسمعون أحاديثهما هذه ويعرفون سخطهما الظاهر وإعجابهما الخفي، فيبسمون صامتين ما أقام أبوهم، فإذا انصرف لشأنه امتلأت أفواههم بالضحك وانطلقت ألسنتهم بالدعابة، وأمهم تسمع لهم وتنظر إليهم، منكرة عليهم بطرف اللسان معجبة بهم في أعماق القلب، وكنت أنا أسمع الأحاديث كلها فألهو بها وأطيل التفكير فيها، فهل من سبيل إلى أن تتم بين سكينة وبيني مبادلة كهذه التي يراد أن تتم بين ابن هذه الدار المنفي في أقصى الصعيد وهذا الموظف القبطي المنفي في أدنى الأرض؟!

ولكن كيف السبيل إلى تحقيق هذه المبادلة؟ بل كيف السبيل إلى عرضها على سكينة أو التحدث إليها فيها؟ بل كيف السبيل إلى تعليل هذه المبادلة لسكينة؟ وما الذي يزعجها عن منزلها هذا الذي تطمئن إليه وتسود فيه لا تكاد تذعن لأحد ولا تلقى من أحد ما يلقاه الخدم من السادة؟ ما الذي يزعجها عن هذا المنزل ويحملها على أن تنتقل منه إلى هذه الدار التي لا حظَّ لها من ترف والتي ليس فيها هذا المهندس الشاب؟ وهَبْ سكينة حنت واطمأنت إلى مثل هذا العرض السخيف، فكيف يكون تعليل ذلك لسيدها؟ وكيف يكون تعليل ذلك لسيدتي؟ كلا! هذه أحلام ليس إليها من سبيل، ومهما أجتهد ومهما أحاول فإن الشر لا يُنال إلا بالشر، والإثم لا يُدرك إلا بالإثم، ولن أبلغ هذه الغاية التي أسمو إليها حتى أقتحم في سبيلها غمرات وأقترف في سبيلها آثامًا.

لا بد إذن من بعض الشر، ولا بد من أن أمكر حتى أُقصى عن هذه الدار، ومن أن أكيد حتى تُقصى سكينة عن بيت المهندس الشاب، وما أسهل المكر حين تتهيأ له النفس! وما أيسر الكيد حين يطمئن إليه الضمير! ومتى عجزت المرأة عن أن تبلغ من المكر والكيد ما تريد؟! لن أجد في تحقيق ما أريد جهدًا ولا مشقة إذا رضيت نفسي ما لا بد من أن ترضاه من الشر، واستباحت ما لم تكن تستبيحه من الإساءة والإيذاء.

فأما سكينة فأمرها ميسور. وإنما هي زيارة للبستاني وإغراء له ببعض المال، واتفاق معه على أن يفسد الأمر على هذه الفتاة ما وسعه ذلك، حتى إذا انتهى منه إلى ما